2685 1173

التل ثائر قومي و سياسي رفيع ترك بصمات واضحة في تاريخ الأردن

الصفات العسكرية في شخصية وصفي وفكره كانت حاكمة وطاغية أثرت في كل تفاصيل حياته

هزيمة الجيوش العربية في حرب ١٩٤٨، هو فقدانها لزمام المبادرة مباشرة بعد دخول فلسطين، حين لجأت إلى وضعيات دفاعية ساكنة، بانتظار الهجمات المعادية، تاركةً للعدوّ حشدَ قوّاته باتجاه موقع معين، وهزيمته، ثم الانتقال بكامل القوّة لمهاجمة موقع آخر. والحقيقة، إنه كما كان وصفي مصيباً في تشخيصه لواقع الحال في حرب ١٩٤٨، كذلك فإن هزيمة ١٩٦٧ تعود إلى فقدان العرب جانب المبادرة. وعلى كل حال، فهو يرى إنه طالما أن الهدف من المعركة هو فرض الإرادة على الخصم؛ فإن أفضل وسيلة مباشرة هي تدمير قواته المسلحة. ولا يمكن فعل ذلك بدون المناورة التي تمنح المهاجم مرونة في الحركة، وقدرة على تركيز القوة في زمان ومكان من اختياره. وما يدعم تفكيره هذا، هو إطلاعه الواسع على الفكر العسكري، بدليل أبحاثه وكتاباته. فعلى سبيل المثال، وفي بحثه حول المفاضلة بين الدفاع والهجوم، يقول: إنه ليس هناك عملياً معركة هجومية صرفة أو معركة دفاعية صرفة. لقد أجرى مفاضلة بين مدرسة ماجينو «خط ماجينوالدفاعي» ومدرسة ليدل هارت «الإقتراب غير المباشر»؛ وكذلك بين مدرسة البلتزكريج الألمانية، التي إعتمدت على مزايا الدروع، والمدرسة الحديثة «الردع النووي». وخلص إلى الإستنتاج بأن أسس أساليب القتال لا تتبدل بإدخال أسلحه جديدة، وإنما تتكيّف على أساسها دون تبديلات جذرية. وعلى صعيد متصل، ناقش وصفي العمل على الخطوط الداخلية والخارجية ومزايا كل منها، في بداية الخمسينيات، على ضوء تجربة إسرائيل في العمل على الخطوط الداخلية في حروبها مع العرب. وفي ظني، إنه في ذلك الوقت، ربما كانت هناك قلة من العسكريين العرب ممّن يدركون هذه المفاهيم.

حرب ١٩٦٧: توصل وصفي مبكراً إلى قناعة بأن إسرائيل لابد وأن تستهدف احتلال الضفة الغربية، لأسباب أولها استكمال المشروع الصهيوني وثانياً، لأهمّية الضفة الغربية من ناحية عسكرية لإسرائيل؛ كونها تخدم إسرائيل في العمل على الخطوط الداخلية في مواجهة الجبهات العربية. وقد كرّر التل تحذيراته من الانجرار إلى معركة قبل أوانها ودون استعداد. كان يرى عدم دخول حرب ١٩٦٧، لأن العرب غير مستعدين للقتال، استناداً إلى القرار الذي توصلت إليه اللجنة العسكريّة وقرار مؤتمر القمة العربي الثاني في الدار البيضاء عام ١٩٦٥. هذا القرار الذي أكد بأن الجيوش العربية لن تكون جاهزة قبل مرور ثلاث سنوات، ليتم خلالها تسليح وتقوية الجيوش العربية. كان وصفي شجاعاً. ولم تخدعه ادعاءات الإعلام المؤثر وصيحات الحرب من الإذاعات العربية. هذا في الوقت الذي كان فيه أغلب الأردنيين يعتقدون بأن قوة «مصر عبد الناصر» العسكريّة وقدراتها الصاروخية المزعومة (الظافر والقاهر) قادرة على إلحاق الهزيمة بإسرائيل. لم يكتف وصفي بإبداء الخوف على ضياع الضفة الغربية والقدس، بل قدم أفكاراً لدرء الخطر. فقد رأى إنه إذا كان لا بد من الحرب فلنواجهها بكل ما لدينا من إمكانيات. ولذا؛ اقترح خطة عامة لتطبّق حال تغيّر الموقف لصالح العدو، تقضي بالتراجع إلى القدس وحشد معظم القوات فيها، بحيث تصبح كالقلعة؛ يتم خوض حرب الشوارع فيها والصمود إلى أن تفرض الأمم المتحدة وقف القتال. واقترح أن يبدأ العمل فوراً بتكديس المؤن والذخيرة. وفي قناعته أن تنفيذ هذه الخطة سيكون كفيلاً بعدم احتلال الضفة الغربية.

حرب العصابات والعمل الفدائي: في مذكرة قدمها وصفي إلى جلالة الملك حسين عام ١٩٦٩، بعنوان «أهداف الإستراتيجية الإسرائيلية والخطة العربية المضادة لتصفية الوجود الإسرائيلي»، وفي معرض اقتراحه بتحويل الجهد العسكري الأردني من حالة رد الفعل إلى وضع فاعل؛ اقترح التلّ بأن يصبح العمل الفدائي ركناً من أركان هذه الخطة، وأن ينظم وتنشأ له قيادة عليا، وأن يتم تزويده بالتخطيط والتدريب والمال والرجال والسلاح. ورأى أن يوحّد جهده ضمن المجهود العسكري العام، ويتم تصعيد نشاطه وعملياته بحيث يصبح قادراً على التطور إلى مرحلة حرب العصابات. وإذا تم ذلك، فسوف يؤثر العمل الفدائي على العدو وسيكون مضطراً لإعلان التعبئة العامة التي ستصبح عبئاً ثقيلاً عليه. من ناحية أخرى، في الكلمة الأخيرة التي ألقاها وصفي التل في اجتماع مجلس الدفاع العربي المشترك، الذي انعقد في مقر جامعة الدول العربية في القاهرة، بتاريخ ١٩٧١/١١/٢٨، وتعقيباً على تقدير الموقف العسكري، تمهيداً لوضع خطة عسكرية عربية شاملة لمواجهة إسرائيل، والذي قدمه اللواء سعد الدين الشاذلي (الأمين العسكري المساعد للجامعة العربية)، قال التلّ: إن هناك جبهة أساسية لم يفصلها التقرير بشكل كاف، وهي جبهة تثوير المنطقة المحتلة. وعملية التثوير هذه تخص المقاومة، وتخصنا جميعاً كعرب، وتخصنا بصورة كاملة كدول مواجهة. فإذا وضعنا خطة جيدة لذلك، وتم تنفيذها؛ سيؤدي ذلك إلى الإخلال بتوازن العدو الداخلي في الأرض المحتلة، مما سيحقق نتائج يكون من شأنها تغيّر في تقدير الموقف العام وحجم القوات المطلوبة. ومهما يكن، فلا يحتاج المرء إلى مزيد من الأدلة، لإثبات أن شخصاً بخلفية وصفي، كمقاتل وكمفكر عسكري، لا بد أن يكون بالضرورة مقتنعاً بأهمية العمل خلف خطوط العدو. لقد أيّد العمل الفدائي وكان حريصاً على أن يوجه إلى محاربة العدو داخل الأرض المحتلة، وأن لا يتدخل العمل الفدائي في الحياة اليومية، للمواطنين، أو التدخل في واجبات وأجهزة الدولة.

الأردن أولوية: بالرغم من أن وصفي اعتنق فكر القومية العربية، وكان همّه الدائم القضية القومية المركزيّة قضية فلسطين؛ إلا أنه حدث تحوّل لدى وصفي بعد هزيمة ١٩٤٨. بدأ يلاحظ انقسام القادة العرب، ونشوء حالة الاستقطاب بين أنظمة ثوريّة وأنظمة محافظة، وتجذر وتغوّل فكر القطرية في العالم العربي. في ذلك الوقت، بدأ التل بالتحول الفكري التدريجي، وأصبح أكثر تشدداً في ضرورة المحافظة على الأردن واستقراره؛ إيماناً منه بأن زعزعة الكيان الأردني هو مصلحة لإسرائيل. من جهة أخرى، ولكون وصفي ليس من النوع الذي يقبل التبعية أو السير مع التيار، فقد انبرى يتصدّى لكل الزعامات التي تنتقد الأردن، قناعةً منه بأن الأردن يجب أن يكون حراً وسيد نفسه في اتخاذ القرارات وحسب قناعاته، ومؤكداً أن الأردن لم ولن يكون ظلاً لأحد. والواقع إنه توصل إلى قناعة، بعد تجربته الغنية، بأن الوطن العربي الكبير المنشود، كالبنيان، لا بد وأن يقوم على أعمدة أو روافع، وأن الواجب يقضي بأن نعمل على المحافظة على هذه الروافع وتقويتها في هذه المرحلة. وهكذا فإن الإيمان بالأردن والعمل من أجل بنائه ومنعته أصبح أولويّة، إضافة لكونه أساس الإيمان بالوطن العربي الكبير.

خواص القيادة لدى وصفي

• يكاد يجمع دارسو التاريخ العسكري، على ندرة امتلاك قائد ما، لجميع صفات القيادة. وعادة ما تكون هذه الخواص القيادية متفاوتة في درجة توفرها. ولكن قد تعوّض نقاط الضعف في إحداها بنقاط قوة في صفة أخرى. وقد توفر لوصفي التل معظم خواص القيادة، وكما يلي:

السلوك والمظهر

كان وصفي في مظهره وسلوكه، أقرب إلى عامّة الشعب منه إلى النخب؛ فكان يرتدي الملابس العادية والعملية، ويتحدث باللغة المفهومة للجميع، ويستخدم أحياناً تعابير من الموروث الثقافي والاجتماعي الأردني، والتي كانت تلقى صدى إيجابيا من الأغلبية. وبالرغم من تقاطيع وجهه الصارمة والعابسة، التي تعطي الانطباع بأنه رجل جافّ ولا يعرف إلاّ الجدّ؛ فإن أصدقاءه يجمعون على إنه كان دمثاً ويحمل مشاعر رقيقة. لكنه من ناحية أخرى كان يبدو صلباً في المواقف الصعبة والخطيرة، ولم يكن عاطفياً في أظهار مشاعره. وربما بسبب هذه التركيبة العصبية والاتزان والسواء النفسي توفرت له جاذبية «كاريزما» قيادية خاصة توحي للآخرين بالثقة.

الشجاعة

لعل صفة الشجاعة كانت الأكثر وضوحاً في شخصية وصفي التل. لقد امتلك الشجاعة بنوعيها؛ الشجاعة المادية (البدنية) والشجاعة الأدبية. فشجاعته في ميدان القتال، شهد له فيها زملائه، في معارك الجليل، والتي أصيب في أحداها، ولكنه تابع القتال. وهذه الشجاعة ظهرت كذلك في بعض المواقف في الميدان؛ حين اعترض على أوامر قيادة جيش الإنقاذ بالانسحاب من الجليل إلى لبنان، وفي محاولاته المستميتة مع المسؤولين في سوريا ولبنان، لإجبارهم على الاشتباك مرة أخرى مع العدو، وفي جولة ثانية، وفي تحريضه لضباط فوجه للانتقال إلى نابلس واستئناف القتال. أما الشجاعة الأدبيّة؛ فقد ميّزت جميع مواقفه في الحياة. لقد كان يجاهر بمواقفه رغم معارضة الكثيرين الذين كانوا يسيرون مع التيار. لقد أيّد على سبيل المثال، دخول الأردن في حلف بغداد. ووقف كذلك ضد دخول الأردن حرب عام ٦٧، رغم المشاعر العامة الجارفة والأغلبية التي ترى العكس. وأخيراً، ألم تكن شجاعة وصفي الممزوجة بالكبرياء والعناد، هي التي جعلته، رغم التحذيرات الرسمية، يصمم على الذهاب إلى القاهرة للمشاركة في إجتماعات مجلس الدفاع العربي، وهي المشاركة التي إنتهت بإستشهاده غيلة؟

الإعتماد على النفس: كان وصفي شديد الثقة بالنفس. كان يجاهر بآرائه ويناقش بوضوح لا بل كان دوماً يبادر إلى ذلك، إذ كان له رأي في أي موقف؛ يشرح ويناقش ويحاور حول رأيه ليس فقط مع زملائه أو مرؤوسيه، بل حتى أمام رؤسائه. قال وصفي في مؤتمر صحفي في ١٩٧٠/١١/٧، حول المعركة عنوان الوجود الأردني: «إذا كنت شخصياً قد عانيت بعض الشيء في كل المراحل التي تشرفت فيها بحمل المسؤولية، فإنني قانع بأن سبب تلك المعاناة، هو إصراري على التمسك بالوضوح في كل شيء؛ الوضوح في تفكيري وأفكاري، والوضوح في عملي وخطواتي. وهو إصرار، أحب أن أؤكد على تشبثي فيه، وإيماني الذي لا حد له، بصحته وجدواه». إن هذا القول يوضح بدقة مدى ثقته بنفسه. وفي رأيي، ليس أدل على ثقته بنفسه أنه كان أكثر رئيس حكومة عقد ندوات مفتوحة مع المواطنين حول مختلف المواضيع ومختلف القطاعات، أثبت خلالها أنه محاور من طراز مميّز.

الجلد

كان التل، بشهادة كلّ من عرفه، يملك طاقة هائلة على العمل الذهني والبدني. كان يبدأ العمل في بعض الأحيان من الصباح الباكر حتى ساعة متأخرة من الليل، مكتفياً بأكل ما تيسّر وهو يعمل بدون كلل. والأهم، إنه كان قادراً على العمل تحت الضغط. شهد المرحوم الشريف عبد الحميد شرف بأن لديه طاقه كبيرة من صفاء الذهن، إذ قال: «إن وصفي كان يشترك في اجتماعات طويلة تعالج قضايا بغاية الأهمية، ثم ينتقل مباشر، إلى اجتماعات مجلس الوزراء، ويبدأ الدخول في قضايا أخرى، بصورة تبدو وكأنها تستحوذ على كل إهتمامه».

الإبداع الذاتي: آمن وصفي بأهمّية الإبداع لدى مخططي الحرب. ويرى بأن المعركة التي يراد التخطيط لها لا يمكن أن تكون نسخة طبق الأصل عن معركة غيرها، لأن المعطيات تتغير. لذلك، من الخطأ إلتماس الإجابات في تقليد أساليب كانت صالحة في معارك معينّة. وعليه، فلا بد أن يكون أسلوب معركتنا جديداً ومبتكراً ومبدعاً. كما ولاحظ أن القادة الصغار في جيش العدو يتدربون على ممارسة الإبداع الذاتي. ويتم إعطاؤهم قدر من الحرية في اتخاذ القرار حسب التطورات الميدانية، على العكس من الجيوش العربية. لقد ظهرت صفة الإبداع الذاتي لدى وصفي بصورة جليّة، في الكثير من الإنجازات النوعية أثناء توليه مواقع المسؤولية المختلفة. والأمثلة على ذلك كثيرة، ولعل أهمها: تطوير أداء الإذاعة الأردنية، إضفاء الطابع الأردني على الأغاني، قانون خدمة العلم، تجربة معسكرات الحسين للعمل والبناء، وتجربة غرس الأشجار المثمرة والحرجية.

المعرفة

كان وصفي شغوفا بالمطالعة طوال حياته. ولعل دراسته للعلوم والفلسفة عبّرت عن ميوله وعكست طريقة تفكيره. ومع ذلك، كانت مطالعاته تشمل سيَر البطولات وفي السياسة والفلسفة والتاريخ العسكري. وهناك العديد من الأدلة من أحداث ووقائع تثبت أنه كان يطالع كل ما هو حديث، حيث كان يناقش ويتبادل الكتب الحديثة مع بعض قادة الفدائيين ومع بعض ضباط الجيش المثقفين. والأهم أنه رُوِيَ أن وصفي كان ينوي تأليفَ كتاب حول مَبادئ الحرب ونظرياتها.

النزاهة والإستقامة: عاش وصفي فقيراً ومات فقيراً، رغم وجوده في مواقع تهيّء لمن يريد استغلالها ثروة كبيرة. روى عنه زملاء عملوا معه في ضريبة الدخل، إنه كان دائماً في حالة عوز. وكان يستدين ثمن علبة السجائر. وقد ازداد إعجابهم به عندما عرفوا بأنه يساعد آخرين محتاجين من راتبه. قال عنه زميل آخر: «كانت نظافة يده فوق حدود التصور، بينما كان المجال أمامه واسعاً للإثراء». ليس هذا فحسب، بل إنه قام بشراء الأرض التي بنى عليها بيته غرب صويلح بالتقسيط لمدة عشر سنوات من السيد فهد العبداللات. وبدأ البناء عليها بغرفتين تم الإضافة إليها فيما بعد، وبمساعدة زوجته. وإجمالاً، توفي وعليه دين يقارب ٩٤ إلف دينار معظمها لمؤسسة الإقراض الزراعي أنفقها على إنشاء مزرعته في منطقة الحلابات.

الحزم والعدل

كثيرة هي المواقف التي تدل على صفتي الحزم والعدل عند وصفي، والتي تبعث شعور الثقة لدى من حوله، حين يرون أمامهم نموذجاً في الشموخ والثبات، سيما في المواقف الصعبة. بعد انتهاء مراسم تشييع الشهيد هزاع المجالي، قال لموظفي الإذاعة: «لقد فقدنا هزاع. ولكن الأردن ما يزال هو هو. علينا أن لا نظهر أي نوع من التخاذل.

وليكن شعارنا: أذا مات منا سيد قام آخر. إن خير ما نرد به على الأشرار؛ أن نمضي في طريقنا بكل صلابة وثبات». وهناك موقف آخر يحمل دلالة الحزم، وذلك عندما أراد عمل دوام الدوائر الحكومية على فترتين، قبل الظهر وبعده، أسوة بالعديد من الدول المتقدمة، فاعترض بعض وزرائه بحجة أن الموظفين سيكرهونك، فرد وصفي: لاتهمني كراهيتهم، إذا كان الشعب يستفيد من ذلك، وعندما أخرج من الوزارة أستطيع أن أفتح دكاناً.

فرد وزير آخر، ممازحاً، إنك لن تجد من يشتري منك. فضحك وصفي وقال هذا لا يهم. من جهة أخرى، فهناك الكثير من الوقائع التي يعرفها الكثيرون التي تدل على صفة العدالة عند وصفي. فهو لم يحاب صديقاً أو قريباً بل كان يؤمن بالكفاءة. ويروى أن أحد زملائه الوزراء، رشح له شخصاً ليعين سفيراً، مؤكداً على حسن أخلاقه واستقامته. فما كان من وصفي إلاّ أن أجاب: إذا كان فاضلاً أميناً فيمكنك مصاهرته.

لكننا لن نعيّنه سفيراً. وأكثر من ذلك، تم الاستغناء عن خدمات صديقه وصديق والده الدكتور صبحي أبو غنيمة في عهده، في قضيه تتعلق بدعم قرارات المؤسسية. وهذا لم يمنع وصفي من أن يسير بجنازته وأن يحزن لفراقه. وفي موقف آخر، حين تشكلت لجنة في وزارة الخارجية لإعداد قوائم بالموظفين الذين لا يحملون مؤهلات جامعية لنقلهم إلى مواقع أخرى. وأثناء بحث الموضوع في مجلس الوزراء، لفت أحد الوزراء النظر، إلى أن أحد أعضاء اللجنة لا يحمل شهادة جامعية. حينها إرتأى وصفي أن ينقل مع الآخرين؛ فدافع البعض عنه بسبب كفاءته وخبرته الطويلة. فأجاب وصفي: إن هذا الشخص صديق لي. ولكن المسألة مسألة مبدأ. ولا يمكن أن أوافق على أي إستثناء. ولم يتردّد في تطبيق العدالة.

الحماس

كثيرة هي المواقف والأفعال في حياة وصفي التي تدل على حماسته منقطعة النظير. لم يتردد في معارضته لأمر إنسحابه من الجليل وإلحاحه على متابعة القتال. وحتى فيما بعد، حاول باستماتة إقناع القادة بالاشتباك في جولة جديدة من القتال. وكانت هي السبب المباشر في وضعه بالسجن وإبعاده بعد ذلك. وحماسه هو الذي كان الدافع وراء الكتابة حول ما يعتقد إلى كل المسؤولين؛ فعندما كان يعمل مستشاراً في السفارة الأردنية في ألمانيا، كتب على سبيل المثال إلى جمال عبد الناصر في عام ١٩٥٦، يعرض عليه الاستعداد للاشتراك في القتال ضد العدوان الثلاثي. وفي عام ١٩٥٨، كتب إلى فاضل الجمالي، وزير خارجية العراق حينذاك، يقترح عليه إرسال نجدة من المقاتلين إلى الجزائر دعماً للثوار، مبدياً استعداده للمشاركة بها. والحقيقة، أن وصفي اعتاد على كتابة المذكرات والرسائل إلى كبار المسؤولين، يحلل فيها الأوضاع، ويقترح فيها الحلول. وبشكل خاص، كان يكتب إلى جلالة الملك حين يكون خارج الحكومة. هذه كلها دلائل على حماسه منقطع النظير تجاه قضايا الأردن والقضايا العربية.

الإخلاص: أن مجمل سيرة وصفي وعمله الدؤوب بدون كلل، بإنجازاته العديدة في المجالات المختلفة، وفي كل المواقع التي عمل بها وصولاً إلى رئاسة الحكومة؛ تدل على إخلاصه الكبير والعميق لبلده ولقضايا أمته العربية وعلى رأسها القضية الفلسطينية. ولا أدل على ذلك من قول المغفور له الملك حسين، في مساء يوم إستشهاده: «عاش وصفي جندياً منذوراً لخدمة بلده وأمته؛ يكافح بشرف ورجولة من أجلها.. وقضى كجندي باسل فيما هو ماض بالكفاح في سبيلهما برجولة وشرف». هذهً شهادة حق؛ إذ أن وصفي أعطى عمره للأردن.

وصفي ومبادئ الحرب

• من يقرأ بتمعّن أبحاث وصفي التل وكتاباته ومحاضراته حول القضية الفلسطينية؛ أسباب هزائمنا العسكرية، وأساليب الاستعداد لمعركة التحرير؛ يجد، بدون شك، إنه انطلق من فهم عميق لمبادئ الحرب كونها حصيلة تجارب الآخرين. وسأعرض هنا إيجاز ما قاله أو آمن به حول مبادئ الحرب.

الحشد: كان إدراك وصفي وإيمانه بأهمية وضرورة حشد القوة، بالمعنى الواسع: الحشد الاستراتيجي؛ أي حشد قوة المجتمع وتحضير الأمة للحرب. وبالمعنى الضيّق والعسكري؛ حشد القوّات الكافية، لمواجهة المشروع الصهيوني. وعملياً، تبنى وصفي برامج وخطط، ونفذ بعضها، بهدف حشد قوى المجتمع للمعركة. فهو الذي قال بأن الحشد العسكري أساسه حشد مادي وعدالة اجتماعية واقتصادية. وبالمعنى الفني العسكري؛ فقد وجه اللوم للعرب لعدم بذلهم جهد حقيقي لحشد القوات الكافية رغم توفرها. فقد عزى هزيمة جيش الإنقاذ إلى هذا السبب وجادل بأن عذر قلة الجنود غير صحيح. كما إنه أوضح بشكل جلي أن سبب هزيمة الجيوش العربية هو عدم حشدهم لإمكانياتهم ودفعها للمعركة لأسباب عديدة. لقد لخص وصفي بدقة رأيه في أهمية مبدأ الحشد، في محاضرته بالجامعة الأردنية عام ١٩٧٠ حين قال: «يجب أن ينفي هذا الفهم – فهم علم ومنطق الحرب – عن تفكيرنا وتخطيطنا كل الآمال والأوهام الشاعرية، بأنه يمكن خوض المعركة دون حشد شامل محسوب دقيق فعلي، أو خوض المعركة بقوى أو إعداد أو إمكانيات لم يوصلها اللوجستيك إلى مكان المعركة وزمانها».

إدامة القصد (الهدف) : لعل أوضح دليل على إيمانه وقناعته بأهمية المحافظة على الهدف، هو ما ورد في خطه العمل التي وضعها عام ١٩٧١، مع فريق من وزرائه. ورد تحت بند ملامح خطة العمل، أولاً: عنوان خطة العمل: المعركة، ما يلي «ما يلزم للمعركة ينفذ ويبقى ويزيد. ومالا يلزم يزول ويخفف. هذا هو عنوان الخطة والفيصل لكل جهد تفصيلي أو عام، داخلي أو خارجي، تنظيمي أو تنفيذي، سواء ما اختصّ منه بتصرفات الدولة أو المواطنين، حتى الشخصية». أما على الصعيد الميداني العسكري؛ ففي بحثه حول جيش الإنقاذ، وفي تحليله لمعركة (مشمار هاعيميك)، ذكر أن أول الأخطاء التي حدثت في المعركة هو إعطاء الأمر بوقف هجوم القطعات المتقدمة بحجة مفاوضات التسليم. وفي تفسيره لهذا الخطأ العسكري، أكد أنه لا يجوز عسكرياً وقف اندفاع قطعات مهاجمة مهما كانت الأسباب. وأنه ليس لوقف الهجوم في هذه المعركة أيّ مبرّر لأن الجيش فقد المبادأة نهائياً، واضطر لتمركز دفاعي أفقده الحركة والمرونة.

العمل التعرّضي: إنحاز وصفي دوماً للعمل التعرّضي على حساب العمل الدفاعي. وفي قتاله في الجليل قاد معارك تقدم وهجوم، ولم يستكن في الدفاع، إذ كان يقوم بعمليات تعرضيّة محلية. وحين كتب عن أسباب الهزيمة في حرب ١٩٤٨؛ انتقد بشده لجوء قوات الدول العربية عموماً إلى الدفاع، باستثناءات قليلة. وقد كان محقاً في رأيه. والحقيقة هي أن كل الجيوش العربية، بعد الهدنة الأولى، لجأت إلى الدفاع المستكين، بإنتظار هجمات قوات العدو التي كانت تناور وتهاجم بكل قواتها في موقع تهزم فيه القوات المقابلة ثم تنتقل إلى موقع آخر.

قابلية الحركة: قناعة من وصفي بأهمية القدرة على المناورة؛ فقد حلل أسباب ضعف القدرة على المناورة لدى الجيوش العربية في حرب ٤٨، مبيّناً أن ضعف القادة وقلة التدريب، عنت أن طاقتها العقلية كانت ضعيفة. وضعف الطاقة العقلية المدرّبة بين الضباط عنى عدم القدرة على المناورة الناجحة. وعندما تنعدم القدرة على المناورة؛ فمعنى ذلك الخوف من المعارك المكشوفة التي تعتمد بالدرجة الأولى على المناورة. ونتيجة لهذا العجز؛ فقد فقدت الجيوش العربية زمام المبادرة، وتجمّدت الجيوش في حرب مستكينة. وفي بحثه الأخر حول تطور المفاضلة بين الدفاع والهجوم؛ أسهب في شرح الفكر العسكري الألماني ومدرسة (البلتزكريج)، والتي اعتمدت أساساً على مزايا الدروع، واعتمدت الهجوم الخاطف وسرعة إجراء المناورة؛ ممّا يوحي بإعجابه بها.

المفاجأة: آمن وصفي بأن المهاجم يملك زمام المبادرة. وبالتالي يملك زمام المباغتة في الزمان والمكان، والقدرة على حشد القوّة في أي مكان يريد المهاجم توجيه الضربة منه. وأكد هذا المعنى في بحثه حول فشل معركة (مشمار هاعيميك) حين قال إن: «قيادة المعركة أهملت تماماً رصد العدو ومراقبته، ممّا جعله يتمركز في تشكيلاته وخطوط شروعه بحرية تامة، مكنته فيما بعد من القيام بحركته بمفاجئة تامة أكسبته النصر. وكما نعلم فإن عنصر المفاجأة هو أحد المبادئ الثمانية الأساسية للقتال،والمفاجأة وحدها تعطي المفاجئ قوة إضافية تؤمن ثلاثة أرباع الجهد اللازم لكسب أي معركة».

الأمن: يدرك كل عسكري جيد، ووصفي منهم، أهمية عامل الأمن للجيوش والتشكيلات في السلم والحرب. وعادة ما تتخذ ترتيبات صارمة لمنع العدو من الحصول على معلومات عن الجيش؛ تشكيلات وتسلحاً وخططَ ونوايا. وتزداد أهمية الأمن في حالة الحروب. من ناحية أخرى، يقول وصفي في تحليله لأسباب هزيمة جيش الإنقاذ في أول معركة له وهي معركة الزراعة: «إن ما حدث هو إنه لم يبق إنسان في منطقة جنين لم يعرف في القتال وتفاصيله. وبالطبع تسربت هذه الأخبار نفسها للعدو».

وحدة القيادة: لا يخفى على أحد، أن من أهم أسباب هزائم العرب في كل حروبهم، هو افتقادهم لقيادة موحدة؛ ففي حالة جيش الإنقاذ تعددت القيادات، ما بين اللجنة السياسية التابعة لجامعة الدول العربية وقائد عام قوات فلسطين المعين من اللجنة، والهيئة العربية العليا، إضافة لوجود قوات مستقلة لا تأتمر بأمره أحد. وفي حالة الجيوش العربية حين دخولها الحرب في عام ١٩٤٨، وبالرغم من وجود قيادة عامة برئاسة اللواء إسماعيل صفوت؛ إلاّ أن الواقع هو أن كل جيش عربي كان مستقلاً بقيادته، ولم ينسّق مع الجيوش المجاورة. كتب وصفي بأنه نتيجةً لانعدام القيادة الموحدة للجيوش العربية، لم تنفذ الخطة العسكرية ولم يجر تنسيق حتى على توقيت العمليات العسكرية. وبالتالي بدت الجيوش العربية وكأن كل جيش منها يغزو فلسطين وحده؛ ممّا مكن العدو من استغلال هذا الوضع وامتلاك زمام المبادرة. وأكد وصفي في كتاباته إن القبول بمبدأ تعدد القيادات إنكارٌ لأبسط أسس الفن العسكري؛ لما في ذلك من بعثرة للجهد وتشويش وتضارب. ويضيف: إن من أهم نقاط الضعف لدينا هي التجزئة وتعدد القيادات والإرادات. والحقيقة، أن وصفي كان في منتهى الشجاعة والصدق حين لاحظ أن مخطط القيادة الموحدة التي اقترحتها جامعة الدول العربية، نتيجة لقرار مؤتمر القمة العربي الأول في عام ١٩٦٤، يدل على أنه لم يقصد بها أن تكون قيادة ولا أن تكون موحدة، ولا أن تخرج إلى حيّز الوجود والفعالية أصلاً. ولهذا ظلت وستظل حبراً على ورق.

المعنويات: أدرك وصفي، وبالتجربة، أهمية المعنويات في مواجهة العدو. وآمن بأن تعبئة القوى الروحية للشعوب، لا تقل أهمية عن تعبئة القوى المادية، وأنه لابد لكل خطة تهدف إلى إنقاذ فلسطين من أخذ هذا الجانب ببالغ الاهتمام؛ فنفسية الشعوب ومعنوياتها طالما كانت العامل الحاسم في مصائر المعارك. وبالتأكيد أن معارك اليوم لا تقتصر على المقاتلين في الجبهات، بل تتناول في تأثيرها الجبهة الخلفية. لقد عرف بالتجربة، أن مذبحة دير ياسين الوحشية في عام ١٩٤٨ قد هزمت العرب نفسياً، بسبب القصور العربي عن فهم أهدافها، وفي تحصين الأهالي نفسياً. وفي المخطط الذي وضعه وصفي لفلسطين، دعى إلى تهيئة العرب نفسياً للمعركة القادمة، ومعنى ذلك العمل على تخليق حالة تنم عن استعداد ذهني تام لكل تضحية في سبيل النصر. وبالتفاصيل، طالب بوضع خطة محكمة للدعوة والتبشير تتناول المؤسسات التربويّة كافة، ووسائل الإعلام والأندية والمساجد.. وتجنيد الطاقات النسائية، اعتماداً على ركائز الدين والتراث والتاريخ والإيمان بالحق والعدل. على إنه لم يغب عن بال وصفي، كعسكري، أن أكثر ما يعمل على رفع معنويات الجنود والوحدات هو الإنجاز وتحقيق النصر في الميدان.

الإدارة: في بحثه المعنون حقائق المعركة؛ بيّن وصفي أن المعركة ليست فقط إستراتيجية وتكتيك؛ فهذان يعتمدان في الأساس على ما يصطلح عليه عسكرياً باللوجستيك.. فالإستراتيجية والتكتيك هما كسقف في الهواء إن لم تسنده أعمده اللوجستيك. وهذا يعني تنظيم وتهيئة كل الجهود المطلوبة للمعركة حتى تستخدم إستراتيجياً وتكتيكياً؛ أي حساب كل نبضة جهد بشرية أو مادية وتهيئتها وحشدها، حتى تستخدم في المواجهة في أسلوب معين ضمن حدود مكان وزمان معينين. ويؤكد أن الإدارة ركن من أركان المعركة، ويجب أن يخطط لها بدقه متناهية؛ إذ لا يمكن خوض المعركة بدون وصول الإدارة إلى مكان المعركة وبالزمان الصحيح.

الرأي العام: كعسكري ودبلوماسي وسياسي ومثقف، قدّر وصفي أهمية كسب الرأي العام إلى جانب معركة التحرير التي تصورها؛ فالرأي العام الداخلي، يجب أن يكون مقتنعاً بعدالة القضية، وبأهداف المعركة. وهذا جزء أساسي من الخطة التي كرّس لها جهده ووقته. أما الرأي العام الخارجي، فقد دعى وصفي العرب إلى التعلم من العدو في كيفية التعامل مع المؤسسات والجهود الدولية. بمعنى أن يتابع العرب المجهودات الدولية، دون نسيان أن الطريق للأهداف هو طريق السلاح، حتى لا نضيع في دوامات الدعاية والإنتظار والآمال والسمعة الدولية الحسنة. ويعترف وصفي بأن العرب متخلفون عن الصهاينة في مجال العمل السياسي. ولذلك دعى إلى تبني مخطط يدعو إلى تعبئة سياسية دولية ناشطة لخلق وجود دولي ملائم. وهذا يتطلب توحيد كلمة العرب السياسية، وبذل جهود سياسية مباشرة في العواصم ولدى الحكومات في سائر المحافل الدولية. على أن لا تكون هذه الاتصالات فورية ومرتجلة وفي الساعة الأخيرة. بل دائمة، وانتهاج سياسة توثيق العلاقات وكسب الصداقات، واستخدام مبدأ تبادل المصالح وتقديم المساعدات في هذا السبيل.

تنبؤات عسكرية لوصفي

• وقبل أن أنهي حديثي عن هذا الجانب في تاريخ وجهد وفكر الشهيد وصفي التل، أجد من الصعوبة بمكان مقاومة رغبة داخلية ناتجة عن حالة اندهاش أو انبهار، تلحّ علي في أن أتطرق لبعض تنبؤاته العسكرية للمستقبل. والحقيقة هي أن مَنْ يطالع كتابات وصفي، ومن يعرف آراءه ومواقفه حول شؤون السياسة والحرب؛ لابد سيدرك أنه كان بعيد النظر، وذا بصيرة ورؤيا ثاقبة. لقد توقع تطور أمور بإتجاهات معينة كما توقع وقوع بعض الأحداث، أغلبها تحقق مع مرور الزمن وبعضها متروك للمستقبل. وهنا سأعرض لبعض النماذج.

حرب ١٩٦٧: كان يدرك بأن احتلال الضفة الغربية هو الهدف التالي لإسرائيل بعد قيامها عام ٤٨، وقد كتب عن هذا. وخلال المرحلة التي قادت إلى حرب ٦٧ عبّر وصفي عن عدم ارتياحه لتطوّر الأحداث لأنه توقع الأسوأ. وما توانى عن تحذير أصحاب القرار. وباختصار، كان يرى بأننا غير مستعدين للحرب. وكان يدرك بأننا إذا تورطنا بحرب قبل أوانها؛ سنفقد الضفة الغربية والقدس.وهذا فعلاً ما حدث.

السلاح النووي: في بحث حول الإستراتيجيات العسكريّة، تمّ نشره في جريدة الحياة اللبنانية، في كانون الثاني عام ١٩٥٥، توصل وصفي إلى استنتاج أن التسابق في المجال النووي بين الشرق والغرب، قد وصل إلى حد الإشباع العلمي والعملي. أي أن الطرفين أصبحا يمتلكان نفس الطاقة التدميرية. وأضاف: إنه طالما أن البشرية لا يمكن أن تقرر الانتحار، بالرغم من حتمية استمرار ظاهرة الحروب؛ لذا لابد من الوصول إلى معاهدة لتحريم استخدام الأسلحة النووية، أسوة بالغازات السامة التي استخدمت في الحرب الكونية الأولى، وتم تحريمها فيما بعد. وبالفعل، فقد توّصلت القوى الكبرى إلى اتفاقية منع انتشار الأسلحة النووية في عام ١٩٦٨، أي بعد ١٣ عاماً من توقعه.

الفرق المجحفلة: في مقالة له بعنوان «عن الجولة الثانية: آراء في أسس السوق والتعبئة»، نشرت في المجلة العسكريّة الأردنية في آذار ١٩٥٦، وفي معرض إبداء رأيه بالتشكيل والتسليح لقواتنا؛ أكد التل على وجوب أخذ القطعات المقاتلة شكل الأرتال سريعة الحركة، الكثيفة في قوة نارها. على أن يغلب عليها من حيث عددها الاختصار في العدد، مع زيادة قوة نار الوحدة. وذكر تحديداً، أن أقرب تمثيل يستطيع تقديمه لتوضيح هذه النقطة، هو التشكيلات المعروفة بالفرق الآلية، شرط أن تطعّم بقطع مدرعة تساند المشاة المحمولين. بعد مرور عشرين سنه على اقتراحه، وأثناء مرحلة إعادة تشكيل قواتنا المسلحة؛ تم في عام ١٩٧٦، اعتماد نظام الفرق الآلية والمدرعة، المكتفية ذاتياً في قتالها، أو ما أصطلح على تسميته بالمجحفلة.

القيادة العربية المشتركة: لم يؤمن وصفي، ومن خلال التجربة، بأن القيادات الموحّدة التي تخرج إلى الوجود بمجرد إعلان الحرب، قادرة على القيام بواجبها، ولا